النص التاريخي في فضاء التأويلية

الدكتور الدراجي زروخي قسم الفلسفة جامعة محمد بوضياف بالمسيلة. الجزائر.

المقدمة :

تناولت الفلسفة على مر العصور كل أشكال الفكر ابتداء من الفكر الأسطوري وانتهاء بالفكر العلمي ، وكان لزاما على الفلسفة في تاريخنا المعاصر أن تمتّد إلى عمق مجالات العلم ، والتي من بينها العلوم الإنسانية و الاجتماعية فجاءت دراسة العلوم الإنسانية و الاجتماعية كثمرة لهذا الاهتمام في محاولة للإجابة عن المشكلات التي يثيرها الواقع الإنساني و الاجتماعي ، و التي لم تجد إجابات شافية ووافية من جانب العلماء المتخصصين في دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية ، ومن هنا أخذت الفلسفة على عاتقها دراسة وتحليل وانتقاد المناهج العلمية المتّبعة في دراسة الظواهر الإنسانية في زمن أصبحت فيه الطريقة العلمية في البحث و تحصيل المعرفة حول ظواهر الواقع المختلفة لغة مشتركة بين العلماء و الباحثين بمختلف تخصصاتهم ، وظهرت عدة مشاكل في المناهج المعتمدة في دراسة الظواهر الإنسانية و الاجتماعية خاصة منها الظواهر التاريخية ، ذلك أن الاعتقاد السائد في الأوساط العلمية والفلسفية أن الظواهر الفيزيائية لا روح ولا إرادة لها و من هنا يمكن للباحث أن يمنهجها ، في حين تحتوي الظواهر التاريخية على خصائص تصّعب و أحيانا تمنع من تبني منهج علمي واضح لدراستها ، وإن أمكن تطبيق المنهج العلمي على الظواهر التاريخية. وظهر التأويلية كمذهب فلسفي يحاول أن يحل مشكلة الحقيقة في التاريخ عن طريق منهج يعرف بمنهج تأويل النص للوقوف على عمقه وتوليد الحقيقة التاريخية فما مدى فعالية التأويلية في توليد الحقيقة التاريخية من خلال مساءلة النص ؟

1 ـ التأويلية كمنهج جديد في مساءلة النص التاريخي :

يقترن التأويل، باعتباره مبحثا يتداخل فيه الفلسفي والأدبي، الديني والسياسي، عادة بمجموعة من الإشكاليات تجد سندها المرجعي في مجال يهم المصالح في بعدها الأنطولوجي، إن على المستويين الرمزي والمادي، أو الفردي والجماعي.ويمكن أن نجمل بعضا من تلك الإشكاليات التي ميزت الحقلين الفلسفي والأدبي طيلة العقود الأربعة الأخيرة من هذا القرن، في إشكالية الذات والموضوع ،و إشكالية المصداقية في التأويل. و كذلك إشكالية المعنى الأحادي في مقابل المتعدد. وحدود التأويل التي يفرضها البرنامج الداخلي للنص. ونضيف أيضا إشكالية القراءة (أو الفهم) والتأويل. وتعد الإشكالية الأخيرة، من أهمها وأحدثها معاينة واختبارا للتأويل. وذلك موازاة مع يقظة الوعي إزاء "فعل القراءة" في أبعاده الإجرائية بالخصوص، إلى درجة جعلت واحدا من أبرز المدافعين عن التأويل، بول ريكور، لا يتوانى عن اعتبار فعل القراءة ذاته ممارسة للتأويل. وهو ما يذهب إليه غدامير الذي يعتبر فعل الفهم - دوما - مرادفا "للتطبيق" بالمعنى الهيرمينوطيقي للكلمة.

وبالفعل، فقد تطور التأويل تطورا نوعيا جعله يتجاوز بعضا من تلك الإشكاليات السالفة. بفضل تطور "فعل القراءة" وبفضل تأثير "الظاهراتية" بالخصوص. ذلك أن إدراك نمط كينونة العمل الفني لا يتم -في نظر الظاهراتية- إلا في وعي أو تجربة الذات أثناء "اصطدامها" بالعمل سواء بالقراءة والتأويل أو بالمشاهدة والسماع أو بالتملي والتأمل، و تأويل النص بغية استبطانه والوقوف على حقيقته هو منهج إسلامي بامتياز، لأن العقل الإسلامي سواء الفقهي أو الفلسفي كان له دور كبير في تأسيس هذا المنهج حتى الآيات القرآنية كانت مخبرة عن التأويل. بل إن التأويل كان الأصل في نشأة الفلسفة الإسلامية، لذا آثرنا أن نقف على مفهوم التأويل في الفلسفة الإسلامية ثم ننتقل إلى انتعاش هذا المنهج في الفلسفة الغربية المعاصرة خاصة مع غدمار.

1 ـ مفهوم التأويل لغة واصطلاحاً :

ـ مفهوم التأويل لغة :

مأخوذ من الأول وهو الرجوع يقال "آل إليه أولاً ومآلاً : رجع وعنه إرتد ويقال وأول الكلام تأويلا وأوله أي دبره وقدره وفسره"[1].

وعلى هذا يصبح التأويل مأخوذ من الأول بمعنى الرجوع ، فكان المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من معاني ، وقيل التأويل مأخوذ من الآية وهي السياسة فكأن المؤول يسوس الكلام ويضعه في موضوعه[2].

[1] - ابن منظور: لسان العرب، د ت ، ص366.

[2] - مصطفى زيد: دراسات في التفسير، دار الفكر العربي، مطبعة الحمادية، مصر، 1939، ص 402.

والناظر في القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل ذكر في كثير من الآيات كقوله تعالى : **(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ [1]).**

فهو في الآية بمعنى وقوع المخبر به، وقوله : ***(وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ).*** [2] التأويل هنا بمعنى الإخبار.

ـ التأويل في الاصطلاح :

التأويل عند السلف له معنيان :

- أحدهما : تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالف فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين، وهذا ما عناه مجاهد من قوله "أن العلماء يعلمون تأويله"[3]، وما يعنيه ابن جرير الطبري في قوله : "القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا" وقوله "اختلف أهل التأويل في هذه الآية"[4] ، ونحو ذلك فإن مراده التفسير[5].

- ثانيهما : هو نفس المراد بالكلام ، فإن الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب[6].

والتأويل في الأصل الترجيح، وهو في الشرع صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به وهو أيضا صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل المتوصل إليه يوافق الكتاب والسنة كقوله تعالى **(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)**،[7] إذا أراد المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلا وإن أراد إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً[8].

والتأويل عند أبو حامد الغزالي أخذ شأناً أكبر مما هو عند السلف حيث يرى أن التأويل هو مستوى الدلالة المجازية لألفاظ القرآن ، وهو ما اختفى من معانيه عن النظر وبطن وقد سماه الغزالي بعلم الجواهر ، وعلى هذا سمى كتابه الخاص جواهر القرآن. ويرى الغزالي أن معاني القرآن قشور وصدف نصل إليها عن طريق التفسير ولها لب وجواهر نصل إليها عن طريق التأويل.

ويذهب أبو حامد الغزالي إلى القول بأن هناك ألفاظ في القرآن الكريم لا هي صريحة ولا مجملة مثل الألفاظ المتعلقة بالصفات الإلهية كقوله تعالى "وليس كمثله شيء"[9] ، هذه الألفاظ يقتضي تأويل الصريح منها بل لا بد من التأويل فيها ولو أدى هذا التأويل إلى مخالفة أهل الإجماع[10]

أما التأويل عند ابن رشد فهو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن نخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجاوز من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنة أو غير ذلك من الأشياء التي عودت من أصناف الكلام المجازي[11].

إذن يذهب كل من الغزالي وابن رشد إلى أن هناك آيات قرآنية يجب أن تؤخذ بالمعنى الظاهر كآيات الحدود ، وهناك أمور خفية في آيات قرآنية أخرى يجب تأويلها للوصول إلى معناها الحقيقي ، غير أن الغزالي لا يوجب التأويل لفئة دون أخرى على عكس ابن رشد الذي جعله من حق العلماء فقط.

كما يلاحظ هنا وجود فرق بين التفسير والتأويل ففيما يتمثل هذا الفرق؟

يتجلى هذا الفرق في أن التفسير بين وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازا كتفسير الصراط بالطريق ، أما التأويل فهو إخبار عن حقيقة المراد والتفسير إخبار عن دليل المراد والدليل في التفسير يكون من القرآن أو السنة أو من أقوال الصحابة، أما التأويل فهو ترجيح أحد

---

[1] - سورة يونس، الآية 23.

[2] -سورة يوسف، الآية 06.

[3] -ابن القيم الجوزية: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، اختصره محمد بن الموصلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 12.

[4] -الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، دار المعارف، (د.ت)، ص 36.

[5] -ا لمرجع نفسه، ص 36.

[6] -ابن القيم الجوزية: الصواعق المرسلة، ص 11.

[7] - سورة آل عمران، الآية 27.

[8] - الجرجاني: التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص51.

[9] - سورة الشورى ، الآية 11.

[10] - الغزالي: جواهر القرآن، د ت ، ص 19.

[11] - ابن رشد: فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، تعليق أبو عمران جلول بدوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص 56.

الاحتمالات على الأخرى اعتماداً على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولها في لغة العرب واستعمالها بحسب السياق ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعنى من كل ذلك[1].

ج - معاني التأويل عند ابن تيمية :

لقد تعددت المفاهيم التي تميز بين التفسير والتأويل سواء عند الفقهاء أو المتكلمين أو الفلاسفة، ولقد بين ابن تيمية ثلاث معاني للتأويل :

ـ النوع الأول :

بمعنى الحقيقة الخارجية والألفاظ المحسوسة الدالة على معاني الكلمات، وهذا النوع تحدث به القرآن الكريم ففي كثير من الآيات كقوله تعالى : (***وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ***) .[2] وقد تكررت هذه المعاني أكثر من عشرة مرات في القرآن الكريم ، دالة على الأثر النافع لمدلول المستعمل و لهذا النوع قسمان :

القسم الأول :

إنشاء وهذا ما يشتمل على أمور الشريعة من أوامر ونواهي والتأويل في القسم هو تطبيق ما أمر به الله والانتهاء عما نهى عنه ، ومن هنا قال السلف السنة في تأويل الأمر، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ع يقول في ركوعه وسجوده : **"سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي بتأويل القرآن"** تعنى قوله تعالى : (***فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا***) .[3] ويقصد الرسول ع تطبيق ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه.

القسم الثاني:

هو نوع من الإخبار ولا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، لقوله عز وجل (***فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ***)[4]وعلمنا هنا فقط بمعنى الإخبار ولكننا نجهل حقائق الأشياء.

وهذا ما يظهر في قوله (أعددت لعبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر) فهناك فرق واضح بين علم المعنى وعلم التأويل[5].

ـ النوع الثاني: استعمله بمعنى التفسير والبيان.

ـ النوع الثالث: استعمله بالمعنى المحدث وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر قد يحتمله لسبب يعتبر واسطة قران بين اللفظين[6]، ويقول ابن تيمية : " هذا التأويل في كثير من المواضع من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، من جنس تأويلات القرامطة والباطنية ، وهذا هو التأويل الذي اتفق سلف الأمة على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض ورموا إثرهم بالشهب"[7].

وهذا النوع من التأويل هو الذي يستعمله الصوفية والمعتزلة في تأويلهم لآيات الصفات وقد ساعدهم هذا النوع من التأويل على صرف كثير من الآيات القرآنية عن معانيها الحقيقية[8].

ومن خلال هذه التقسيمات التي جاء بها ابن تيمية نستنتج أنه لم يرفض التأويل بمعناه المطلق وإنما رفض منه المعنى الحادث المتأخر، أما المعنى الثاني الذي تحدث به السلف وهو التفسير والبيان فهذا ما حث عليه ابن تيمية وهذا ما يتضح في قوله : "يراد بالتأويل حقيقة ما يؤول إليه الكلام وإن وافق ظاهره، وهذا هو المعنى المراد في الكتاب والسنة" [9]ولقد سطر ابن تيمية منهجاً خاصاً في التأويل فما مضمونه؟

---

1 - أنظر :أصول التفسير للشيخ خالد بن عبد الرحمان العك: دار النفائس، بيروت ط2، 1986، ص 52.

2 - سورة يوسف، الآية 23.

3- جاء في البخاري، ج2، (كتاب الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود) ص 159.

4 - سورة السجدة، الآية 17.

5 -ابن تيمية: الإكليل في المتشابه والتأويل، دار التأليف، مصر، ط2 1947،ص281.

6- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، مج4، جمع وترتيب عبد الرحمان بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، الرياض، ط1، 1381هـ، ص55.

7 - ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان، دار البعث، قسنطينة، ط1 1987، ص35.

8 - محمد السيد الجليند : الإمام بن تيمية ومواقفه من قضية التأويل، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1973، ص 157.

9- ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الله و أولياء الشيطان، دار البعث، قسنطينة، ط1 1987، ص 35.

ج - منهج ابن تيمية في التأويل:

يعتمد منهج ابن تيمية في التأويل أربع خطوات هي :

أ - أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما نجده في بعض الآيات غامضاً قد ينجلي غموضه في آيات أخرى.

ب - إذا تعذر علينا تفسير القرآن بالقرآن، علينا بالسنة المطهرة فهي خير شرح لمعاني الآيات الكريمة لقوله صلى الله عليه وسلم : **" ألا إني أوتيت القرآن ومثله معي "**. يعني السنة.

ج - تفسير القرآن بأقوال الصحابة فإنهم أقرب إلى منبع العقيدة السليمة لقربهم من الرسول ع- لاسيما العلماء كالخلفاء الراشدين وابن عباس وابن مسعود رضوان الله عليهم.

د - إذا تعذر علينا كل ما سبق ، علينا أن نعود في تفسير القرآن الكريم إلى أقوال التابعين فإن لهم قدرة كبيرة على تفسير القرآن الكريم ومن أمثال هؤلاء : مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وغيرهم ، أما أن يفسر القرآن بمجرد الرأي فهذا حرام بالاتفاق[1].

يمكن القول في النهاية أن العقل الإسلامي الفقهي والفلسفي لجأ إلى تأويل النص للوقوف على حقيقة المراد منه لينتهي هذا التأويل إلى سلوك عملي أو ما يعرف بالتشريع، لكن هذا المنهج تطور في الفلسفة المعاصرة خاصة منها الغربية ليصبح منهج بديل لفهم الظاهرة الإنسانية خاصة منها التاريخية.

3/ التاريخ في فضاء التأويلية الغربية المعاصرة :

يصعب علينا تحديد بدايات التأويل في الخطاب الغربي ، وإن كان نضج المنهج التأويلي واضح مع شيلر ماخر أو دلتاي أو غدمار وغيرهما ، فإن التأويل يمتّد إلى الفلسفات الحديثة خاصة مع كانط وما قبلها ، وجاء المنهج التأويلي كمنهج بديل في دراسة الظواهر الإنسانية عموما والظاهرة التاريخية على وجه الخصوص ، والتأويل يعني صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى آخر يحتمله لوجود رابطة بين الاثنين[2].

لقد قدم غدامير التأويل في إطار مشروع فلسفي أنطلوجي و هيرمينوطيقي، يتسم بالصراع والسجال الفلسفيين على أكثر من واجهة : بدءا من انتقاد المنهجية في العلم الحديث من جهة، وانتقاد الوعيين الجمالي و التأريخي من جهة أخرى، وانتهاء بالسجال التاريخي المعروف مع "الفلسفة النقدية في شخص هابرماس سعيا نحو حل مشكل أساس العلوم الإنسانية ؛ عبر قراءة "تطبيقية" للأوليات التي وجدها لدى هيدجر في دائرتي الفهم والتأويل الأنطولوجيتين المؤسستين لـ "للوجود -في العالم".

وفي الواقع، لم يكتف غدامير بقراءة تأملات وتأويلات . بقدر ما عمل على خلق استراتيجية ثلاثية للتأويل ضمن دوائر تكشف عن غنى مرجعيته الفلسفية، إذ يمكن العودة بها إلى الفلسفة اليونانية والكانطية والهيجلية والكانطية الجديدة والرومانسية (رومانسية شلير ماخر وديلتاي) . إن الهدف من التأويل هو التعمق في المعنى ، لذا كانت اللغة آلية هامة في عملية التأويل والتأويل كمنهج علمي في دراسة الظاهرة الإنسانية يحتاج إلى عملية أخرى لا تقل أهمية عن التأويل في حد ذاته ، و تتمثل هذه العملية في التحليل ، لأن الباحث المؤول يجب علية - قبل تأويل النص أو الواقعة - تجزئة البحث إلى عناصره و مكوناته، وتجزئة الفرضية إلى حدودها الأساسية ، وعلينا أن نلتزم الدقة أثناء ترتيب المعطيات و تهيئتها . فنحن أثناء دراستنا لظاهرة إنسانية ما نعمل وفق التحليل على تجزئة الواقع ، و ذلك بعرض كل الملاحظات و العلاقات السببية أو التبعية المتبادلة بين المتغيرات الواقعية للوقوف على الروابط بين مختلف الظواهر و يتحول التحليل عندئذ إلى **" عملية ذهنية تتضمن تفكيك الواقع إلى عناصره بهدف معرفة طبيعته "**[3].

وتجدر الإشارة إلى أن عملية التحليل يجب أن تقتصر على الأجزاء التي تخص الظاهرة التي نحن بصدد دراستها فقط لأن البحث عن كل الروابط والعلاقات بين الظواهر قد يكون أوسع من طاقة الباحث ، و نحن من خلال عملية التحليل نبحث عن دال ومدلول ، ومن هنا تتعدى عملية التحليل إلى عملية التأويل. فالتأويل على هذا النحو يصبح **" استدلال يهدف إلى إعطاء دلالة للتحليل "**[4].

---

[1]– Ali Bouamma, La letterature, Pochemique musulmane contere le chiristisme de puises origines, jusqu'au IIIeme Sie entre puise national de livre Algérien, 1988, P 121, 122.

[24] - جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج1 ، مادة التأويل ، ص234

[3] - موريس أنجرس : منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية ، ص 422

[4] - آن إينو: تاريخ السيميائية ، ترجمة رشيد بن مالك ، د ط، منشورات مخبر الترجمة و المصطلح ،جامعة الجزائر و دار الآفاق، 2004 ، ص86

وإن كان للتحليل أصناف كالتحليل الوصفي و التحليل التفسيري ، فان التحليل المرتبط بالتأويل هو التحليل الفهمي وهو **" تحليل يهدف إلى فهم الواقع من خلال معاني يعطيها الأفراد لتصرفاتهم "**[1].

يقودنا التحليل مباشرة إلى البحث عن المعنى و هو دخول غير مباشر في عملية التأويل ، و لهذه العملية بالغ الأثر و الأهمية في الدراسات التاريخية ، لأننا في الدراسات التاريخية نتعامل مع الخطاب أكثر من تعاملنا مع الأفراد ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال فصل عملية التأويل عن التحليل ، فإذا كان هدف التحليل الوصول إلى العناصر المكونة للواقعة فإن هدف التأويل هو اكتشاف الروابط بين مكونات هذه العناصر .

وإننا نلمس في كتاب الحقيقة و المنهج لغدمار التفصيل الكامل للتأويلية و روادها و آلياتها في بلوغ الحقيقة التاريخية بصفة خاصة و الإنسانية بصفة عامة و أبدى غدمار إعجابه بإسهامات شلير ماخر، و دلتاي في تأسيسهما للمنهج التأويلي، رغم انتقاده لهما في بعض النقاط ، و يعتقد شيلر ماخر أن الفهم هو أساس التغلغل إلى عمق الظاهرة التاريخية واستئصال حقيقتها ، و التأويل هو طريقنا للفهم ، ويجب أن ندرك أن عملية التأويل تفرض على الباحث أن لا يكون معاصرا لأنه يجب أن يعيش الظاهرة التي يدرسها وفق سياقها الزماني ووفق مقتضياتها، وهذا مبلغ التأويل. فنحن نبحث في المعاني عن الروح الحقيقية التي سادت في عصرها يقول غدمار متبنيا فكرة شلير ماخر **"كنا قد رأينا أن نموذج التأويلية لدى شيلر ماخر هو الفهم المتجانس روحيا الذي يمكن أن يتحقق في العلاقة بين الأنا و الأنت ، فالنصوص قابلة لأن تفهم فيها تاما بالضبط كما الأنت ... فالمؤول معاصر بكل ما للكلمة من معنى لمؤلف النص وهنا يكمن انتصار منهج الفيلولوجيا أي فهم عقل ينتمي إلى الماضي كعقل حاضر"**[2]. فنحن من خلال معاصرتنا للوثيقة التاريخية نبعث فيها الحياة و نطور الخطاب الثابت .

ويستمر تطور المنهج التأويلي مع دلتاي الذي يعتبر التاريخ علم يتطلب التأويل منهجا لفهم ظواهره، والشرط الأول لإمكانية علم التاريخ هو أنني أنا نفسي كائن تاريخي و الشخص الذي يدرس التاريخ هو الشخص الذي يصنعه[3].

في هذا الرأي دعوة من دلتاي للباحث في الظاهرة التاريخية في أن يتقمص الظاهرة التاريخية ، و ينسجم معها انسجاما تاما إلى درجة وكأنه يعيشها مباشرة حتى يتسنى له تأويلها ، و من ثمة فهمها و بلوغ حقيقتها ، وإن اتفق دلتاي مع شيلر ماخر في ضرورة التأويل كأساس للفهم فإن الاختلاف بينهما ظاهر في تجانس الذات مع الموضوع ، لأن دلتاي يشدد من هذا التجانس إلى درجة انصهار الذات في الموضوع . فالعلوم الإنسانية بما فيها التاريخ تتأسس على معادلة هامة تتفاعل فيها التجربة المعيشة و التعبير و الفهم، وإدراك حقيقة الوقائع التاريخية مرتبط بالعمق الذي تعطيه الذات لهذه الوقائع من خلال تجاوز السطحية إلى المعاني الباطنية لهذه الوقائع ، وهذا الأمر يحتاج إلى اتساع الفكر والفهم و القدرة على تأويل العلاقات التي تربط بين عناصر الظاهرة .

إن التاريخ حينما يعمل على ترجمة الأحداث و الشخصيات التاريخية، فإنه يعمل على كشف انطباعات الحياة الحقيقية حتى و إن كانت هذه الانطباعات في طي النسيان، ومن هنا نكتشف ضرورة العلاقة الحيوية بين الذات و مختلف الوقائع التاريخية.

وهذه العلاقة ستتلاشى و تضمر إن كانت الذات عاجزة عن الفهم و التعبير و التأويل ومن هنا تحجب عنا المعرفة التاريخية .

إن دلتاي ينطلق من تجربة الفرد الذاتية التي يكتسب بها استمرارية حياته ليؤسس على أنقاضها معرفة تاريخية بحيث يصبح فيها الماضي و الحاضر شيئا واحدا ، وما يجمعهما هو قدرة الذات ومعرفة الروابط المشتركة بين الحاضر و الماضي وفق آلية الفهم والتأويل، والحياة في حد ذاتها تتحول مع دلتاي إلى بنية تأويلية وهي الأساس الحقيقي للعلوم الإنسانية[4] .

ويعتقد غدمار أن هذا التجانس أمر غير متاح ، بل إنه يحوّل الدراسة التاريخية كليا إلى دراسة نفسية ، و يجعل الذات بعيدة كليا عن حاضرها و إذا كانت الذات الباحثة مطالبة بالرحيل إلى الماضي فإنها ليست مطالبة بأن تجعل نفسها محتواة في الماضي إلى حد التوافق

---

[1] - موريس أنجرس : منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية ، ص 426

[2] - غدمار: الحقيقة و المنهج ،، ط1 ، ترجمة حسن ناظم و علي حاكم صالح ، دار أويا للنشر و التوزيع ، طرابلس 2007 ، ص 337، 338

[29]-W.Dilthey: L'édification du monde historique dans les sciences de l'esprit, Trad. Sylvie Mesure, Ed. Du Cerf, Paris, p33,34

[30]-W.Dilthey : L'édification du monde historique dans les sciences de l'esprit, p86,87

والانسجام يقول غدمار " ومع ذلك فإن هذا ليس حلا للمشكلة التي أثارها دلتاي ، بل إن طرح التجانس شرطا لهذه المعرفة يحجب مشكلة التاريخ المعرفية فالسؤال هو كيف يمكن لتجربة الفرد و معرفة هذه التجربة أن تكون تجربة تاريخية فنحن لا نعنى في التاريخ بالكليات المنسجمة التي يختبرها الفرد بحد ذاتها ، ويعيد اختبارها آخرون "[1].

إن تأكيد غدامير على مسألة استرجاع الحقيقة في مجال الفن والتاريخ . ينبني على قدرة الفن على قهر المسافة الزمنية والتاريخية. بفضل الحضور المتجدد لدلالته الخاصة. ووفق هذا المعطى، يتأكد نمط وجود الفن والأدب كحالة خاصة ودالة تستدعي التأويل والفهم.لذلك، تبقى مهمة التأويل الأساسية، في حدود هذه الدائرة، هي "كشف وإظهار حقيقة النص التاريخي" الملتبس والغامض والمغترب وجعله مألوفا لدينا. فنحن لا نؤول -فيما يرى غدامير إلا حينما يتعذر علينا فهم دلالة النص فهما مباشرا.والدائرة التاريخية باعتبارها دائرة الفهم التاريخي والراديكالي إذا كانت الدائرة الجمالية تأخذ في الاعتبار الفهم والتأويل باعتباره أدوات نصية توسطية في كشف تجربة الحقيقة في الفن والتاريخ على حد سواء، لكن الدائرة التاريخية، التي هي أوج تأملات غدامير فالهيرمينوطيقا ككل، تثير مفهوم التأويل ضمن بنية ثلاثية غير منهجية تتألف من التأويل والفهم والحوار كلحظات هيرمنوطيقية، تستدعي -إجرائيا- إثارة مجموعة من المفاهيم الهيرمينوطيقية الأخرى المتعاضدة فيما بينها لترسيخ "وعي تاريخي" محكوم بتناهينا وبتناهي فهمنا في الوجود "الذي هو نحن.

لكن التأويلية في فلسفة غدمار مبالغ فيها إلى حد ما ، لأن الفرد كبنية نفسية يكتسب شخصيته و فرديته عبر تجاربه التي تنتجها الظروف التي يعيشها وليس التي عاشها غيره ، وهنا تكمن ضرورة التأويل ، فنحن نعمل على تأويل ما لم نعشه ، أما ما نعيشه فإننا ندركه مباشرة . فضرورة التأويل تكمن في قدرة الفرد على تحليل الأنت دون تجاوز الأنا . ومن خلال العلاقة بين الأنا و الأنت تتأسس الدلالة التي تعطي للظواهر معناها الحقيقي و ترتبط بهذا الدراسات الإنسانية و التاريخية بالفيلولوجيا ، فكما أن طبيعة فن الفيلولوجيا (الدلالة) تعني الفهم خلال سياق ما كذلك تعني طبيعة البحث في الطبيعة فك شفرة كتاب الطبيعة وإلى هذا الحد يكون المنهج العلمي قائما على الفيلولوجيا[2].

لقد تحولت الدراسات التاريخية مع شيلر ماخر و دلتاي و غدمار إلى نص ، فكل وثيقة أو أثر يدرس دراسة نصية خاضعة للتأويل ، لكن هذه الدراسة تحتاج إلى الغوص في ذات مؤلفها في محاولة لكشف النوايا الحقيقية التي أدت إلى الفعل، وعلم التأويل ليس مجرد مرحلة من مراحل تاريخ الفهم ، بل إنه الفهم في حد ذاته فهو تأمل نظري ووسيلة تقنية لتحصيل فن الفهم ، و التأويل بهذا المعنى تحول إلى تقنية منهجية لبلوغ حقيقة النص التاريخي .

وباعتماد التأويل القواعدي الذي يهتم بالمعنى عموما و التأويل النفسي الذي يتوغل في الذات يمكن أن نقف على الحقيقة التاريخية يقول غدمار عن التأويل النفسي **" وهي أساسا عملية إلهامية ، ينزل فيها المرء نفسه ضمن الإطار الكلي للمؤلف و إدراك للأصل الباطني لعملية تأليف عمل ما ، وإعادة إبداع للفعل الإبداعي ، و هكذا فإن الفهم هو إعادة إنتاج لعملية إنتاج أصلية ... وإعادة بناء تبدأ من لحظة التصور الحيوية أي من القرار الأصلي بوصفه المركز المنظم لعملية التأليف "**[3]. ونستنتج من كل ما سبق أن المنهج التأويلي إما أنه يحوّل الدراسات التاريخية إلى عملية فنيّة أساسها التأويل و تقمص دور الغابرين ، أو أنه يحوّل الفن إلى علم و لا أجد فرقا بين الاثنين . لكن هل للمنهج التأويلي استطاع أن يصل ـ على هذا النحوـ إلى فك شفرة التاريخ ؟

الإجابة عن هذه المشكلة تجعلنا نبحث عن النقائص الموجودة على مستوى المنهج التأويلي وفي بدايتها اعتراف دلتاي بقدرة المؤول على فهم القوانين النفسية للآخرين ودعوته للذات في أن تنصهر في الموضوع و تكون جزء منه ، لأن في هذا الأمر كثير من المبالغة و خروج عن المنهج الاستقرائي العلمي ، وإن كان ما طلبه دلتاي مشروع من الوجهة النظرية فإنه غير متاح من الوجهة التطبيقية ، لأن الذات لا يمكن لها أن تغيب كيانها و تنصهر في الموضوع أو الآخر لتقف على النوايا الخفية لصاحب الفعل التاريخي وإن كان دلتاي يدعونا إلى تقمص أنفس ليست أنفسنا ، فإنه بطريقة غير مباشرة يلغي ذواتنا بالإضافة إلى أن دلتاي تجاهل غموض الأنت.

---

[1]- غدمار: الحقيقة و المنهج ، ص 316

[2] - بشير خليفي : الفلسفة و قضايا اللغة ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2010 ، ص 24 ، 25

[3] - غدمار: الحقيقة والمنهج ، ص 279

إن مشكلة التاريخ الحقيقية ليست مشكلة غموض التاريخ في حد ذاته بقدر ما هي غموض الأنت أو صانع الحدث التاريخي الذي نتعامل معه كنص تاريخي .

ويمكن أن نقول بأن مشكلة المنهج في التاريخ بقيّت قائمة مع المنهج التأويلي وإن كان لهذا المنهج إسهاماته في كشف بعض الحقائق التاريخية فإن له سلبياته التي لا يمكن إغفالها، لأن الغوص في عمق النص أو الوثيقة التاريخية و كشف حقيقتها متوقف على الوثائق أو المعطيات الممنوحة للمؤرخ ، فالمؤرخ لا ينتج هذه الوثائق و إنما تمنح له و كذبها أو تحريفها يؤدي بالضرورة إلى فساد عملية التأويل .

إن تأويل الخطاب ينقل المؤرخ من مجال العلم القائم على القانون الرمزي إلى مجال أقل يقينا ، وهو مجال اللغة **" و لن يكون التاريخ عندئذ سوى قاعدة ما يدعي العلوم الإنسانية ، التي بدأت تنفض الإدعاء العلموي ، لتوفر أنماط التأويل اللازمة لظواهر تنغرس بالضرورة في التاريخية. والمؤرخ لا غنى له عن تلك النماذج المفهومية التي هي نتاج التعامل المبني مع الأحداث الفردية "**[1] .

ولم يعد التاريخ اليوم علم مرتبط بالأحداث الإنسانية الماضية فحسب ، بل أصبح مرتبط بالأفق التأويلي ، و هذا ما يجعل المنهج و الحقيقة في علم التاريخ رهينة الأذواق و الاختلاف، وإذا كنا في كثير من الأحيان نعجز عن تأويل خطاب مجتمعنا الراهن و نعجز عن التواصل مع بعض الأفراد . فكيف لنا أن نحسن تأويل لغة الغابرين، وكيف لنا أن نفك طلاسم الماضي ؟ لذا بقيت بعض الحقائق في بعض الحضارات بعيدة عن فهم الإنسان حتى أيامنا هذه .

ولا يريد غدمار تقديم منهجية شمولية لمساعدة العلوم الإنسانية. بقدر ما يقصد إلى تحقيق وعي المؤول المتأمل في منهجية البحث في التاريخ. واعتمادا على هذا المبدأ المعقد، يعتبر التاريخ وتاريخ التأويل بالنسبة لـ غدمار تاريخ تأثيرات تشد انتباه المؤول لإبراز حقيقة التاريخ بين أحضان عملية الفهم ذاتها. بما أن اندماج آفاق الفهم تشكل نمط تفعيل ذلك الوعي. وعليه، ينكشف -هنا- مفهوم التأويل في بعده الإبستمولوجي في نقد مسألة الفهم في العلوم الإنسانية. فالمؤول المتأمل في منهجية البحث في التاريخ، لا يصل إلى مستوى ذلك الوعي إلا بامتلاكه لما يسميه غدامير ب ''الوضع الهيرمينوطيقي'' وهو مفهوم، يستوقفنا أمام مفاهيم ''الأفق'' و''اندماج الآفاق'' و''جدلية منطق السؤال والجواب'' باعتبارها مفاهيم تصف كيفية اشتغال الوعي التاريخي الفعال أو عملية الفهم ذاتها.

إن الوعي بتاريخ الفعالية، حسب غدامير هو امتلاك الوعي بالموقف الهيرمينوطيقي تجاه التاريخ أو التراث أو الفن. فكيف يتم ذلك إجرائيا؟ إن مفهوم ''الموقف'' يتحدد بالتدقيق في كونه نقطة تحدد إمكانات الرؤية. وبما أنه كذلك، فهو يرتبط -جوهريا- بمفهوم ''الأفق'' إذ بدونه لن يتحقق ذلك الامتلاك. ويحدد غدمار الأفق باعتباره ''الدائرة المرئية التي تحتضن وتضم كل ما هو مرئي، انطلاقا من نقطة محددة، ووفق هذا التحديد، يبدو ''الأفق'' بمثابة مقياس لضبط مجال الرؤية بحساسية مبالغ فيها. إنه شيء ندخل فيه -بالتدريج- وهو يتحرك معنا على حد وصفه له.

إن اللغة في الحقيقة تعكس أحد مظاهر الثقافة ، ومفهوم الثقافة يدل على التغيّر الثقافي العميق ، لذا فإنه يتوجب علينا أن نفهم سلوكات و ثقافات الأمم الماضية حتى يتسنى لنا تأويلها على أحسن حال ، و هذا الأمر ليس بالهيّن و غدمار في حد ذاته يعترف بصعوبة هذا الأمر يقول في ذلك **" وقد اكتسبت المفاهيم و الكلمات الأساسية التي ما زلنا نستخدمها طابعها ، فإذا لم تكتسحنا اللغة وإنما كنا نكافح من أجل فهم ذاتي تاريخي معقول يجب أن نجابه جمهرة من الأسئلة عن التاريخ اللفظي و التصوري ، وفيما يلي ليس بوسعنا غير الشروع بالمهمة الكبيرة التي تجابه الباحثين كمهمة تعسف بحوثنا الفلسفية ، تتضمن مفاهيم من قبيل، فن ، تاريخ ، إبداع ...و تعبير و أسلوب و رمز هذه المفاهيم التي نتبناها كمفاهيم بديهية تتضمن ثروة التاريخ "**[2].

يتّضح من هذا القول أن غدمار يريد للمؤرخ أن يكون بحرين بحر من علم و بحر من فن . فهل يستطيع عقل المؤرخ لهذا الأمر طلبا؟ و مهما كانت الإجابة عن هذا السؤال فإنه يجب على المؤرخ أن يكون فيلسوفا ناقدا ومؤولا للنصوص في كثير من الأحيان إن أراد تحصيل الحقيقة التاريخية.

[1] - السيد ولد أباه : التاريخ و الحقيقة لدى ميشال فوكو ، ص 41

[2] غدمار الحقيقة والمنهج ، ص 279

خاتمة:

يمكن القول أن المنهج التأويلي منهج استغرق في اللغة وتجاهل الإنسان، فعقد بعض الأمور التي لم نكن بحاجة إلى تأويلها سواء تعلق الأمر بالعقل الإسلامي الذي تحول فيه التأويل إلى صراع طائفي، إن لم اقل إلى حروب وفتن ، أما العقل الغربي فقد تاه في التأويل لدرجة تعقيد البسيط على عكس ما يريد الإنسان أي تبسيط المعقد، وما يحسب للتأويلية أنها حركت العقل الإنساني ونبهته إلى ضرورة فهم عمق النص لبلوغ الحقيقة لا الوقوف على ظاهر النص فقط. فبلوغ الحقيقة التاريخية رهين تجاوز قراءة السطور إلى قراءة ما بين السطور و هي المهمة المعقدة التي يجب أن يتولاها المؤرخون لتخرج الحقيقة التاريخية في ثوب عقلاني.